الوجود والوجود!

obeikandl.com

obeikandl.com

الوجود والوجود!

«إن أعظم معجزة على الإطلاق هي وجود هذا الوجود، ولا يكاد يقترب شيء من عظمة هذه المعجزة، إنها أم المعجزات التي تشير حتمًا إلى شيءٍ ما، أو أحدٍ ما، فوق كل شيء!» بهذه العبارة الحاسمة ختم الدكتور (إيرك ميتاكساس Eric Metaxas)[1] الأستاذ بجامعة براجر (Prager Unversity) بحثه الجميل عن أشهر أقوال العلماء عن وجود الله، وإذا كان الإنسان حائرًا في معرفة حقيقة وجوده الذي هو جزء يسير جدًّا من الوجود، فكيف سيكون بمقدوره فهم الوجود كله؟ إن أفضل تعريف للوجود هو ذلك التعريف الذي يستطيع أن يفهمه أواسط الناس إن لم نقل: بسطاؤهم فطريًّا؛ لأنك كلما تعمقت بمحاولة تعريف مضمون هذا المصطلح فلسفيًّا، تعقد الأمر، وتفتقت عليك متاهات معرفية أخرى تحتاج هي بذاتها إلى تعريف وتصور خاص، والوجود هو ببساطة شديدة (عدم العدم!)[2]، إذ لا يمكن تعريف العدم إلا بالوجود بعد غيابه، وحتى العدم نفسه أصبح محيرًا لأهل العقول والأفهام، فهل هو شيء أم لا شيء؟، فإذا لم يكن شيئًا فكيف عرفناه، وسميناه العدم؟! وإذا كان شيئًا فكيف نميز بينه وبين الوجود المتعارف عليه؟ وهل ممكن تصوره بمبادئ التصورات الخمسة: (الجنس والنوع والفصل والعرض الخاص والعرض العام)، وهل له حد وجوهر؟[3] وهل كل

---

(١) إيرك ميتاكساس Eric Metaxas مولف وباحث أمريكي وأستاذ جامعي معاصر ولد عام ١٩٦٣م له اهتمامات بالتوثيق المسموع والمرئي عن الوجود والإيمان بالخالق يقوم بتقديمها بنفسه وهذه العبارة مقتبسة من مقطع له على موقع (اليوتيوب) أورد فيه عبارات جميلة عن الصراع بين الملاحدة والمؤمنين بوجود الله.

(٢) ذكر ابن حزم أن المعتزلة يَعُدّون (المعدومات) أشياء (موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الثاني، ص٧١).

(٣) تعريفات الجنس: هو جزء الماهية الذي هو أعم منها لصدقه عليها وعلى غيرها النوع: هو الكلي الذي هو تمام ماهية أفراده الفصل: الصفة التي تفصل بين الأجناس كالنطق المميز للإنسان عن جنس الحيوان العرض الخاص: كلي خارج عن الماهية مختص بها كالضحك المميز بين الناس العرض العام: هو الكلي الخارج عن الماهية الشامل لها ولغيرها والجوهر: هو المادة الدائمة التي تتكون منها الأشياء ولا يتفق الفلاسفة على تعريف موحد لهذه الأشياء: (تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، بيروت، لبنان) والحد: هو الوصف المحيط بمعنى الموصوف المميز له عن غيره: (ابن حزم، المستصفى، الجزء الأول، ص١٢).

عدم عند الإنسان في الماضي بقي عدمًا في الحاضر، أم أصبح وجودًا بعد اكتشافه، أم أثبت العلم أنه وجود، ولكنه من نوع آخر، وهل عدم الشيء في ذهن الإنسان يكون عدمًا له في الوجود؟

وللوجود صور متعددة أهمها صورتان: وجود ظاهري ووجود حقيقي، ومن غرائب هذا الوجود أن الوجود الظاهري موجود فقط في تصورات الإنسان ومجال إدراكه، فتجده يخضع الوجود الحقيقي لمعايير عقله وتصوراته القاصرة، ويَعدّ ما يخرج عن ذلك إما منكرًا أو غير موجود، وهذا ما يدفعنا للقول: إن الوجود الظاهري (العرفي) لا يعكس وجودًا مطلقًا، فقد يعكس فناء للشيء مع بقاء دليل عليه، ألا توجد نجوم فانية ومختفية تمامًا من السماء، لكننا لا نزال نراها، حيث لم ينقطع شعاعها بعد لبعدها عنا؟ لقد فنيت فلم يبقَ إلا شعاع يدل على وجودها في الماضي، والفناء لا يدل على العدم بل العلم توصل إلى حقيقة أن المادة لا تفنى، ولا تستحدث وفق معايير الوجود الدنيوي، فالمادة كلها قد خلقت، وأودعت نظام الكون من أول لحظة الوجود الذي لا يعلم كيفية حدوثه إلا خالقه، وكم من معدوم وفانٍ في تصوراتنا هو في الحقيقة موجود وباقٍ في عالم الوجود، وما أوتينا من العلم إلا قليلًا.

*****

يستحيل (اختراق) المستحيل

لقد ذهب الفلاسفة إلى أقصى حد ممكن في محاولة تفسير هذا الوجود، ولم يوفروا شيئًا من العقل ولا حتى من الجنون والاحتمالات والتوقعات والتخرصات إلا قالوه دون أن نلمس من أحدهم ثقة كاملة بما يطرح؛ لشعوره الذاتي بقصوره عن ذلك، ولم يصمد من تلك الآراء إلا ما كان متوافقًا مع الفطرة البشرية ومنسجمًا مع منطوق الوحي الإلهي، ولقد خلصوا في النهاية إلى تصنيفٍ للوجود لعلهم من خلاله يصلون إلى شيء معقول ومفهوم عند التطبيق، فقالوا: إن الوجود متردد بين ثلاثة أحوال: مستحيل وممكن وواجب، فالوجود المستحيل: مثل وجود الشيء نفسه في مكانين مختلفين

في زمان واحد، أو وجود الشيء ونقيضه في المكان نفسه (الظلام والنور)، والوجود الممكن كوجود الإنسان في الحياة، يقول (بسكال): «كان يمكن ألا أكون، لو كانت أمي ماتت قبل أن أولد حيًّا، فلست كائنًا واجب الوجود، ولا بد من كائن واجب الوجود يعتمد عليه وجودي، وهو الله»[١]، وكذا وجود العالم كله يُعدّ وجودًا ممكنًا، من حيث أوجده الخالق، ولو شاء لما أوجده، ومن أهم خصائص الوجود الممكن أنه يحتاج إلى مرجع (موجد) يخرجه من حيز الإمكان قبل وجوده إلى حقيقة الوجود الفعلي بعد وجوده، وهذا الموجد لا يمكن أن يكون ممكن الوجود كالإنسان والعالم، وإلا لاحتاج هو أيضًا إلى من يوجده، وأصبحنا أمام تسلسل لا ينتهي، والمنطق والعقل والواقعية تؤكد أنه لا بد لأي تسلسل بين علة ومعلول أن ينتهي عند حد معين، وهذا الحد هو الذي عليه مدار الحديث كله، إذًا لا بد من موجود واجب الوجود بلا علة توجده، وهذا هو الوجود الواجب الذي توصل إليه (رينيه ديكارت) بقوله: «إنني موجود، ولم أوجد نفسي، فمن أوجدني، ومن خلقني، إنني لم أخلق نفسي، فهذ الخالق لا بد أن يكون (واجب الوجود)»[٢].

وعندما قرر (ديكارت) التخلي عن كل يقين والبدء بالشك للوصول إلى اليقين، شك في كل شيء حتى شك في نفسه، فتوصل في نهاية الأمر إلى حقيقة واحدة، وهي (أنه يشك)، ثم تورط في أن يترتب عليها يقين آخر، وهو أنه عاقل يفكر لأنه يشك، ثم ترتب عليها أنه موجود؛ لأنه يشك ويفكر بعقل، ثم ترتب عليها حقيقة رابعة أنه لم يوجد نفسه قطعًا، ولم يخلق نفسه من عدم، فمن الذي أوجده من عدم؟ فقال: «لأني موجود، فلا بد لي من خالق، وهذا الخالق واجب الوجود، لا يفتقر إلى من يوجده، ولا بد أن يتصف بكل صفات الكمال، وهذا الخالق هو الله بارئ كل شيء»[٣]، انظر كيف ألقى بنفسه في بحار الشك هاربًا من الحقيقة، فإذا بالحقيقة الأقوى تحيط به من كل

(١) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٢٣٢.
(٢) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٢٣٢.
(٣) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص١٢٨.

جانب، وتحاصره بقوة، وتأخذ بتلابيبه نحو النور، ويخرج منها أكثر إيمانًا مما هرب منه، وقد أُطلق على هذه الحالة التفكيرية لديكارت الكوجيتو[١]. ووجد العالم الأسكتلاندي اللورد (كالفن)[٢] نفسه محاطًا بهذه الحقيقة الإيمانية، فيقول: (يتعذر على الإنسان أن يتصور بداية الحياة واستمرارها دون أن تكون هناك قوة خالقة مسيطرة، ولدينا براهين قاطعة وقوية على أن جميع الأشياء الحية تعتمد على خالق واحد أحدي أبدي)[٣].

وعلى الرغم من كثرة محاولات الإنسان لتخطي عقبة تفسير الوجود بعيدًا عن الوحي، إلا أنها في نهاية المطاف لم تصل إلى شيء يعتمد عليه باطمئنان، بل هناك اعتراف صريح من (ديكارت) بضرورة الوحي لفهم الوحي، فيقول: «أقدر ديننا، لكن ما هو مؤكد هو أن طريق الحقيقة ليس مفتوحًا للجهلة أكثر من العلماء، وأن الحقائق الدينية المنزلة إلينا فوق طاقة عقولنا، وللنجاح في اختبارها لا بد من طلب العون الإلهي»[٤]، فما إن تتبع مقالات ومؤلفات المفكرين والفلاسفة والأدباء في رحلة خيال منطقي حول نظرتهم إلى الوجود، إلا وتبدأ ترتخي حبالها، وتتشتت أجزاؤها حتى يضطر أحدهم إلى الركون إلى أقرب ملاذ توفيقي توافقي عام يتشبث به، وتشعر وكأنه وجد نفسه في ورطة يريد الخلاص منها بأي طريقة تسد مسد هذا الفراغ المعرفي الذي يواجهه كل من أعرض عن وحي السماء، فلا يمكنه الحفاظ على مستوى العناد والتحدي الذي بدأه معك، عندما كان متحمسًا يريد تجلية الحقيقة وكشفها للإدراك.

---

(١) الكوجيتو Cogeto هو مصطلح متداول عند الفلاسفة لوصف المبدأ الذى انطلق منه (ديكارت) في نظريته الفلسفية لإثبات الحقائق بالبرهان وهو عبارة عن قضية منطقية ترجمتها بالعربية: «أنا أشك إذًا أنا موجود».

(٢) اللورد كالفن واسمه وليم تومسون William Thomson (١٨٢٤ – ١٩٠٧م) الموافق (١٢٣٩ – ١٣٢٥هـ) مؤسس الفيزياء الحديثة ومكتشف الصفر المطلق وهو أقصى انخفاض حراري للمادة ولذلك سميت وحدة قياس درجة الحرارة المطلقة باسمه (كالفن):

(Encyclopaedia Britannica-William Thomson, Baron Kelvin, Harold I. Sharlin, Last Updated 112013-21-).

(٣) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٤٢٧.

(٤) فلسفة الدين مجموعة من المؤلفين بإشراف علي عبود المحمداوي مقال (الفلسفة والدين) للكاتب: مارك أونغلاري، ترجمة: نور الدين علوش، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م، ص٤٦٦.

لقد حدث هذا الموقف المتقلب مع الفيلسوف اليوناني القديم (ديمقريطس الأبديري)[1]، الذي يُعدّ أول من قال: إن الوجود هو الذرات والفراغ والحركة فقط، وإن الضرورة العمياء(!) دفعتها الحركة ثم التلاقي فالتشابك والتمازج، وهكذا بدأ الوجود! هكذا يتكلف التفسير السطحي مستميتًا للوصول إلى شيء ما، ولكن تظهر الفطرة السليمة في كل مرحلة، فالذي انبرى له هو (أناكساغورس)[2] الذي رد عليه بقوله: «من المستحيل على قوة عمياء أن تبدع هذا الجمال والنظام، اللذين يتجليان في هذا العالم؛ لأن القوة العمياء لا تنتج إلا الفوضى، فالذي يحرك المادة هو الرشيد الحكيم»، وهذه العبارة الفطرية من (أناكساغورس) دفعت أشهر الفلاسفة (أرسطو)[3] أن أثنى عليه قائلًا: «إنه الوحيد الذي احتفظ برشده أمام هذيان الفلاسفة»[4]، فمن أين لهؤلاء المعترضين على (ديمقريطس) هذه النزعة الفطرية الصحيحة؟ لم يذكروا لنا أنهم تلقوها من رسول ولا نبي؟! إنها فطرة الله التي تولى سبحانه غرسها في كينونة الإنسان ومنه مباشرة دون واسطة من نبي مقرب ولا ملك مرسل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

*****

(١) ديموقريطس الأبديري Democritus of Abdera (٤٦٠ ق. م – ٣٥٩ ق. م) فيلسوف يوناني وهو أكبر ممثل للمذهب الذري القديم وهو مؤسس نظرية الجزء الذي لا يتجزأ ويُعدّ أول عقل موسوعي بين اليونانيين وممثل الفلسفة في عصر ما قبل سقراط: (معجم الفلاسفة، طرابيشي، مرجع سابق، ص٣٠٧).

(٢) أنكساغوراس Anaxagoras (٥٠٠ ق. م – ٤٢٨ ق. م) من أكثر فلاسفة اليونان أصالة وهو أول من فسر علميًّا ظاهرة الكسوف والخسوف حوكم بالزندقة لجرأة نظرياته الكونية: (معجم الفلاسفة، طرابيشي، مرجع سابق، ص١٠٦).

(٣) أرسطو طاليس Aristoteles (٣٨٤ ق. م – ٣٢٢ ق. م) فيلسوف يوناني ولد في مدينة أسطاغيرا، وهو أشهر فلاسفة التاريخ الإنساني، وهو مبتكر علم المنطق وصاحب لقب (المعلم الأول)، ويعرف بفيلسوف الأخلاق والمنطق، وهو معلم الإسكندر الأكبر: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الأول، ص٩٨).

(٤) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٣٣– ٥٥.

أسرار الوجود من أمر الله

لم يحسم الإنسان بشكل نهائي أي قضية تجريبية، سوى الإيمان؛ لأنه استسلام وتسليم مطلق لا يخضع للعلم التجريبي والرصيد المعرفي للبشر، أما ما سوى ذلك فالمجال مفتوح للبحث والتطوير والمراجعة والنفي والإثبات، ومن الخطأ اعتقاد الحسم العلمي والمنطقي المجرد في كل مسألة في هذا الكون؛ لأن هذا منافٍ للحقيقة، فإذا كان الاختلاف في نتائج المقدمات المنطقية النظرية الميسرة للمرء واردًا لتفاوت الأفهام وتباين المراحل التاريخية، فإنه حتى في العلم التجريبي، أو ما يطلق عليه الحس المعرفي التجريبي أيضًا خلافات لم توقف عجلة العلم والبحث واستثمار الإيجابيات، بل وإثبات العجز عند حد معين من المعرفة، حقيقة واقعية لا ينقصها، ولا ينقص علماءَها شيءٌ، وإذا كان الإلكترون من أصغر ما توصل إليه العلم في العصر الراهن، فهل سأل أحدنا نفسه يومًا ممَّ يتكون هذا الجسيم الافتراضي الذي لا يمكن رؤيته بأي وسيلة؟

لن تجد الإجابة عند أحد، فالفرضيات لا تنتهي؛ لأن الإلكترون أصلًا فرضية لو لم يتحقق إثباتها عمليًّا من خلال تطبيق المعادلات الفيزيائية والكيمائية والنووية عليها، لما كان وجود الإلكترون حقيقة، ولم يكن وجوده مصدقًا حتى نتمكن من رؤيته بأي وسيلة، ومع هذا دخل في المعادلات المتعددة بوصفه حقيقة مدركة عقلًا لا تقبل الجدل العلمي، ويستحيل إدراكها حسًا ولو بأكفأ الواسطات العلمية في الوقت الراهن، والدليل على صحة فرضية وجوده أن جميع الاتصالات السلكية واللاسلكية، والقنوات والأشعة والتصوير والمراسلات، والمفاعلات النووية كلها تقوم على نظرية وجود الإلكترون، فهل انتفى وجوده أنه لم يدرك حسيًّا؟ كلا.

إننا نعتمد على الإلكترون في تقنية حياتنا كلها، وهو يقين مطلق عند من يدعون الإلحاد جميعًا، ولو طلبنا من أحدهم أن يثبت لنا وجوده حسيًّا لما قدر على ذلك، ولو أنكره أحد، فطلبنا منه المغامرة بالبقاء داخل مفاعل نووي لكي يتأكد من عدم وجوده هناك لولى مدبرًا ولم يعقب؛ ليقينه من وجوده ومن ضرر الإشعاع المنبثق منه؛ لأنه يؤمن إيمانًا مباشرًا بوجود هذا الإلكترون ونشاطه وإشعاع الطاقة منه، وهذا أنموذج

مصغر لما هو موجود مما ليس بمقدورنا إدراكه بالإحساس المباشر، ومع هذا قد يأتي من بعدنا من يجد فيما يتراءى لنا حسمه علميًّا، فتحًا علميًّا جديدًا تتضح من خلاله معالم معرفية أكثر عن هذا الوجود، إنها ظاهرة علمية أشار إليها عالم الفيزياء الألماني (فيرنر هايزنبرغ)[1] عندما وضع مبدأ (عدم اليقين) في علم الفيزياء، الذي أصبح من أهم مبادئ الفيزياء الحديثة، والذي ينص على استحالة معرفة سرعة الإلكترون وتحديد مكانه من قبل الإنسان في آن واحد، واقعيًّا: ليس أمامه إلا نصف الحقيقة، إما أن يعرف السرعة، أو يحدد المكان، وهنا تقف قدرة الإنسان[2].

هذه الشواهد العجيبة من أسرار هذا الوجود تعكس مدى حجم النكران الذي يرتكبه المخلوق الضعيف العاجز في حق الخالق القوي القادر ﷻ، كيف يليق بمن منحه الخالق عقلًا أوصله إلى مثل هذه الحقائق المعرفية الدقيقة، وسخرها لخدمته ورفاهيته، كيف يكون منكرًا ومتنكرًا لما هو أعظم من هذه الحقيقة؟ أي موجد هذه الحقائق وكاشفها لمعرفة الإنسان: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧] ثم يكون الإنسان بعدها أكثر شيء جدلًا في وجوده كله، ولئن تشعب العلم التجريبي في تفاصيله، واختلف العلماء فيه، وتقبلوا ذلك، فإن الباحث في علم الغيبيات لا يملك الدخول في تفاصيلها لجهله المطلق بها ماديًّا وحسيًّا، فتراه عادة يكتفي بمحاولة البرهنة المنطقية على إثبات الوجود أو نفيه من خلال اللجوء إلى العقل المنفصل نهائيًّا عن أسرار الغيب المذكورة بالوحي المنزل، وهذا ورب السماء سيكون أشد اختلافًا وتشعبًا وشتاتًا ما لم يهتدِ بهدي الخالق الواصل إلى عباده من خلال نور الوحي، مفتاح الأسرار كلها والتفسير الأوحد لكل

(١) فيرنر هيزنبرج Werner Heisenberg (١٩٠١ - ١٩٧٦م) الموافق (١٣١٩ - ١٣٩٦هـ) عالم الفيزياء النظرية الألماني ويُعدّ من أشهر علماء القرن العشرين فى الفيزياء الجسيمية والنووية لكن أعظم إسهاماته كانت تطوير ميكانيكا الكم يقول عن أثر التعمق في العلم على رسوخ الإيمان: «إن الجرعة الأولى من زجاج العلوم الطبيعية قد تحولك إلى ملحد ولكن في الجزء السفلي من الزجاج هناك (الله) هو في انتظاركم!»، ومع تحفظنا على هذه العبارة غير اللائقة بحق الله تعالى إلا أن مقصوده الحث على تواصل البحث المعرفي حتى نصل إلى الحقيقة إشارة إلى أن العلماء أكثر الناس معرفة بالله: (المبادئ الفيزيائية لنظرية الكم، ڤيرنر هايزنبرج، ترجمة: محمد صبري عبدالمطلب وانتصارات محمد حسن الشبكي، كلمات عربية للترجمة والنشر، الطبعة الثانية، ٢٠١١م).

(٢) كهنة الإلحاد الجديد، هيثم طلعت، (مرجع سابق)، ص١١٨.

غموض غيبي وجودي يواجهه الإنسان في حياته، وهكذا يبقى الوحي شامخًا بالمعرفة الوجودية على الرغم من أنف المنكرين له، وهو السراج المنير في ظلمات الجهل البشري على الرغم من هذا الاستكبار والعناد الذي يدفع المرء أحيانًا إلى الإعراض عنه، ولكن لا مناص له من اللجوء إليه في نهاية المطاف، وإلا فسيبقى الخلق أجمعين أمام فراغ العقول الذي لا ينتهي، وتضيع منهم الساعات والأيام والأسابيع والشهور والسنون والأعمار في جدال متصل لا فائدة منه.

*****

جدلية الإيمان بوجود الله

الإيمان بوجود الله تعالى هو أكبر قضية تواجه الفكر البشري في الدنيا على الإطلاق، وهي أولوية فوق جميع الأديان والعبادات، ولا يوجد عاقل قديمًا ولا حديثًا إلا وتناولها سرًّا أو علانية، أي إنها قضية القضايا الوجودية، والإيمان بوجود الله هو الإيمان الأول، وهو مفتاح كل شفرة معرفية في عالم الكون، ودواء كل شك وجودي في كل ملة ونحلة ومذهب عبر الأجيال، وشفاء لكل صدر قلق مستوحش مما حوله في الدنيا، وحل لكل لغز كوني، وجلاء لكل غبش وضبابية على العقول والأفهام، واستيعاب كل حادثة في الوجود، وتفسير لكل غموض وفهم لجميع مظاهر الزمان والمكان والقدر والحياة والموت والدنيا والآخرة والوحي والبعث والنشور والجنة والنار، وهو أصل السعادة الحقيقية والطمأنينة الأبدية، وهذا يعني أن الإيمان بوجود الله هو سر التوازن النفسي الوجودي بين الأحياء والأموات، والماضي والمستقبل، والوجود والعدم، والدنيا والآخرة، وهو الأصل الأكبر والأول والأهم من كل جدلية منطقية أو فلسفة قائمة، وهو مفتاح السلامة في الحياة وبعد الممات، والأمن من الأهوال مهما تعاظمت بغض النظر عن زمانها ومكانها، يبدأ هذا الإيمان من أصل الفطرة التي نشأ عليها كل إنسان بلا استثناء، ثم يترجم إلى سلوك وتعاملات بين الناس وعبادات وفق إرشادات الوحي، ثم ينتهي بخاتمة خير ينتقل بعدها الإنسان عبر مسيرته الوجودية الطويلة لينتهي به المطاف بهذه الخاتمة الحميدة الآمنة المطمئنة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ

﴿٦٩ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٦٩- ٧١].

إن أهم خطوة نحو الإيمان بوجود الله، هي الاستعداد التام لقبول النتيجة (الوحيدة) الثابتة بذاتها قبل قبول العقل البشري بها، والتخلص من كل وقفة أو غصة أو تردد لا مبرر له، إذ لا فائدة من السير في طريق قد تم تحديد الموقف السلبي الجاف منه مسبقًا، عالج هذه (الغصة الفكرية) الداخلية التي تكاد تكتم أنفاسك إن كنت ممن يتردد في التسليم المطلق بالإيمان بوجود الله، تخلص من هذا المانع الوهمي الخطير الذي يحول بينك وبين الانضمام إلى ما يزيد على ٩٥٪ من سكان كوكب الأرض المؤمنين بوجود الله، وإلا فعليك أن تتنحى جانبًا، هذا إن استطعت أن تخرج من ملك الله المحيط بك من كل جهة، تذكر أنه من الخطأ أن يحصر الإنسان العلم والمعرفة الفسيحة داخل قدرته على التصور والخيال الضيق، فالوجود لا يثبت بالمعقولات البشرية وحدها، التي هي جزء من الوجود أصلًا، إذ يوجد كثير من الموجودات التي لم تعقل، ولم تتصور من قبل أحد، بل حتى لم يتخيلها الإنسان نفسه، يقول الفيلسوف الألماني (لايبنز)[1]: «إذا كانت عقولكم لا يمكن أن تتصور هذا الإله، فلا يلزم من ذلك عدم وجوده، إذ إن كثيرًا من الحقائق لم تتمكنوا من تصورها حق التصور، وتكون في الحقيقة موجودة»[2]، ويقول (أنسلم)[3]: «نحن نفهم الله بأنه الموجود الذي لا يمكن للإنسان أن يتصور أعظم منه»، ثم يستدرك بعد أن تصور أن تصور الإنسان محدود، فيوضح أن وجوده لا

(١) جوتفريد ليبنتز Gottfried Wilhelm von Leibniz (١٦٤٦م-١٧١٦م) الموافق (١٠٥٦-١١٢٨هـ) فيلسوف ألماني كان والده محاميًا ويعمل أستاذًا لفلسفة الأخلاق يصف ليبنتز الجواهر بالمونادات ويَعدّ العالم مكونًا من عدد غير متناهٍ من المونادات ويَعدّ أسمى موناد هو (الله) الخالق لجميع المونادات وهو أزلي وحكيم بصورة مطلقة: (تاريخ الفلسفة الحديثة، ويلم رايت، ترجمة: محمود سيد أحمد، تقديم ومرجعة: إمام عبدالفتاح إمام، التنوير للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، بيروت، لبنان، ص١٣١).

(٢) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٢٠٨.

(٣) أنسلم St. Anselme (١٠٣٣- ١١٠٩م) الموافق (٤٢٤- ٥٠٢هـ) فيلسوف إيطالي من أبرز فلاسفة العصور الوسطى وصاحب الحجة الوجودية لإثبات وجود الله: (موسوعة الفلسفة، بدوي، (مرجع سابق)، الجزء الأول، ص٢٣٣).

يقتصر على تصورنا، بل يوجد في الواقع الحقيقي، ولكي يكون الأعظم، فلا بد أن يكون موجودًا؛ لأن الوجود بذاته كمال[1].

لا بد من تنظيف الطريق المؤدي إلى الإيمان الصحيح من كل عائق، ومن الطبيعي أن أدعوك -إن كان لديك مشكلة مع قضية الإيمان بوجود الله- إلى أن تشخصها تشخيصًا دقيقًا، وأن تكون صريحًا مع ذاتك، ليتبين لك: هل كانت مجرد تقليد للتائهين ممن سبقوك تظن أنهم على بصيرة؟ أم أنها إشكالية داخلية ذاتية تحتاج إلى علاج بالنور المبين؟ أم أنك على يقين بوجود الله مع قلق حميد لا تحتاج معه إلا إلى المجاهدة للثبات عليه؟ ومهما تكن حقيقة تلك المشكلة وحجمها، فإنه يبقى الإيمان بوجود الله هو الخيار الذي لا خيار بعده بل لا خيار معه، فأنت قادم إلى الله لا محالة، وعليك الاستعداد، ولمن لديه أي شائبة في هذا الأمر، فلينصت إلى فطرته التي ستصرخ من داخله مهما كابر قائلةً له: ويلك آمن إن وعد الله حق، دون أن تلتفت إلى أي شيء مما قد يكون عائقًا لك دون الإيمان بالله، وإن العاقل ليعجب كل العجب أن يكون في الإيمان بالله كل هذه المنافع المعرفية والخيرات والأمان والطمأنينة في الحياة وبعد الممات، ثم تجد من يتلكأ أو يتردد أو يستنكف أن يكون عبدًا لله، فيحرم نفسه هذا النعيم العظيم، ويلزم نفسه دوائر الشقاء والشك والتيه والقلق الدائم، وهو أينما تحرك أو سكن، فهو ضمن ملك الله الذي لا مفر منه ولا مهرب للإنسان عنه آمن به، أم لم يؤمن.

إن مجرد الاقتراب من شأن وجود الخالق بالمقاييس العقلية والحسية والتفكر بذاته مغامرة خاسرة ستؤدي فقط إلى شلل في العقول وعجز في الاستيعاب، بحيث يتوقف كل شيء لديك أيها الإنسان، ويكون المخرج الوحيد هو أن تستسلم أيها العبد، للقوة المطلقة التي هي إحدى صفات الخالق العظيم، وستصل إلى هذه النتيجة مهما كان مستوى تفكيرك وحدة ذكائك، ومهما سلكت من طرق للوصول إليها، ستستسلم لسيدك لا مناص من ذلك، وسيصبح مجرد تفكيرك في السؤال (مَن خلق الله؟) تفكيرًا غبيًّا جدًّا، ومستعصيًا جدًّا، ومستحيلًا جدًّا، اطرح هذا السؤال سرًّا وعلانية، لا تتردد أبدًا، افعل ما بوسعك فعله، ليس أمامك إلا الاصطدام بصخرة الحقيقة، وهي العجز

(١) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٢٥١.

التام بالأمس واليوم وغدًا، منذ الأزل وحتى الأبد، ومستقبلًا سيبقى التحدي فيه قائمًا، هنا طبعًا تقف، ويرتد إليك عقلك عاجزًا، كما ارتد إليك بصرك من قبل خاسئًا وهو حسير، إنه الإيمان الحق والاستسلام المطلق للخلاق العليم ﷻ، وهنا فقط يجب أن تنتهي كما أمرك سيد المؤمنين ﷺ.

هذه هي الحقيقة الكبرى، وهذا هو الحق المبين، الإيمان بوجود الخالق مسلمة وجودية كونية وموقف حازم يجب اتخاذه من كل مخلوق من أجل توازن المعارف الوجودية كلها في الحياة وبعد الممات، إذ لا يتصور وجود دون موجد على الإطلاق، إلا وجود من لا موجد له، وهو الخالق الأول المتصف بصفات الكمال التي يهيمن بها على كل شيء، ولا يوجد موجد لهذا الوجود غيره، هذه هي سبيل المؤمنين في الإيمان، وكل ادعاءات التهرب عن هذه الحقيقة عبثية فاشلة، وأي إنسان لم يعجبه هذا الموقف فعليه أن ينسحب من المشهد إن استطاع، وليختر له عالمًا آخر يعيش فيه، غير عالم الله، وليبحث عمن يؤويه، ويحميك إن استطاع إلى ذلك سبيلا؟ قطعًا لا مفر له ولا مهرب من هذا المجال الكوني الذي حكم خالقه وقدر، فقال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨] ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] تذكر جيدًا أيها الإنسان، أنك مخلوق مدرج في ملك مالك الملك، محصور داخل هيمنته وسلطانه، طمأنينتك بالإيمان ووحشتك بفقدانه، وهذه الوحشة نوع من اليقين القوي لما ستواجهه من تبعات لو فقدت الإيمان، إذ لو لم تكن متأكدًا مما سيواجهك لما تغشاك هذا الرعب من فقدان الإيمان، وكأنك تقر بكل جوارحك أنك خاضع تمامًا لله القائل: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

أنصت جيدًا ـ يا رعاك الله – لن تأمن من وحشة الوجود المحدقة بك إلا بالفرار في اتجاه واحد، ونحو منفذ واحد، ومخرج واحد، إنه الفرار إلى من قد توسوس لك نفسك أحيانًا بإنكار وجوده، بينما يحيط بك الرعب والوحشة من كل جانب من دونه، ولا منجى لك منها إلا بقبول هذا العرض الآمن منه وحده لا شريك له، قال تعالى مناديًا بني آدم: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾

أَتَوَاصَوْا بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٠- ٥٨].

تلك هي الحقيقة، التي من أجلها خلق الإنسان، ونزل الوحي، وأرسل الرسل، ونصب الصراط، وخلقت الجنة والنار، فالأمر كله يدور حول محور واحد وحقيقة راسخة، ليس بالضرورة أن يقبلها العقل بالبرهان، لكن يستحيل عليه تجاهلها بالفطرة والوجدان، حقيقة لا تتأثر بإنكار المنكرين ولا جحود الجاحدين، كانت ولا تزال باقية تحدت، وتتحدى، وستتحدى كل من أنكرها، وهي أن الله موجود وجودًا مطلقًا لا نعلم عنه إلا بما علمنا هو سبحانه، على الرغم من أنوف العقول المنكرة والقلوب الجاحدة، وأنه لا أعلى ولا أسمى ولا أجل منه سبحانه، وله الكمال المطلق، كفى تهاونًا بهذا الأمر العظيم، ولتوقف النفوس العابثة عند حدها الذي لا قدرة لها بما بعده، إن سلسلة علل الموجودات (أي إن لكل موجود موجدًا)، مهما طالت لا بد أن تصل إلى نهايتها عند الوصول إلى وجود موجد لا موجد له، ولأن هذا الموجد يحيط بالموجودات، ولا تحيط به، فهو الله وحده لا شريك له في ملكوته وجبروته، وهو الله الخالق البارئ ﷻ الذي: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فهذا هو الحق من ربنا، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر! ولكن عليه أن يتحمل التبعات، فأمامه الجنة والنار، قد جاءه البشير بالأولى والنذير من الثانية.

نحن هنا أمام تقرير حقيقة وواقع يفرض نفسه، ولسنا أمام تنظير أو تبرير عاطفي مجرد، إن هذا الإيمان الذي ترى عظمته وعظيم أثره في نفسيات الناس وسعادتهم في الدنيا، ليس بشعارات جوفاء ولا طلاسم وأهازيج وترانيم معقدة يستعصي الأخذ بها، وليس نصًّا مطبوعًا على ورق يترك لتآكل السنين والبلى، ثم يتلاشى وينسى، ولكنه وإن كان من أعمال القلوب التي لا تحتاج إلى جهد وعناء أساسًا إلا أنه قضية حيوية تحتاج إلى استحضار دائم، ورعاية يقظة متواصلة من خلال التذكير والتحصين ومواصلة العبادات، فلا بد من الإيمان أولًا، ثم ربط القلب بالخالق ثانيًا، بحيث يستمر هذا الارتباط بأقوى ما يمكن طيلة مرحلة الابتلاء والامتحان في الحياة الدنيا، وهذا هو

سر وجود العبادات اليومية والشهرية والسنوية وتكرارها غذاء ضروريًّا للروح، كما أن الطعام والشراب غذاء للجسد.

ولأهمية بقاء هذا الإيمان تحت العناية والرعاية الدائمة، نجد الوحي يدعو الناس دائمًا إلى مواصلة النظر والتأمل في ثلاثة مصادر أساسية: أولها، كتاب الله المنظور (الكون) وثانيها، كتابه المسطور (القرآن)، وما تنزل به الروح الأمين على الرسل والأنبياء عليهم السلام أجمعين وثالثها، الاستئناس (بالفطرة) التي يولد عليها كل مولود، هكذا يجب أن يتأسس الإيمان بالله، وهكذا يجب أن تكون رعايته دائمة متواصلة بلا انقطاع، علمًا أن الوحي الذي دعا إلى ذلك هو أصلًا فرع من الإيمان الأكبر بوجود الله، وقد أمر بالرجوع إلى الآيات الكونية والتفكر والتدبر لمساندة النص الصريح، وبهذا الإيمان الفطري يستطيع المرء أن يحيا بسعادة مفتوحة في حياته حتى مرحلة استيفاء الرزق واكتمال الأجل في الدنيا ليعبر منها إلى الآخرة الباقية.

*****

كل موجود يعظم موجده

ما أعظم هذا الوجود، وما أغرب أسراره وتعقيداته!، وهذه هي الحياة في حقيقتها، سيبقى الإنسان باحثًا ولاهثًا وراء سبر الغيبيات المعجزة لتفكيره، كل جيل يسلم الراية لمن بعده، ولن يكون الأول ولا الآخر ممن فكر وتفكر في أمور علم الغيب مع التأكيد على استحالة التوصل عقلًا إلى شيء من خبرها ما لم يخبرنا عنها الوحي فقط، وكل محاولة سابقة من البشر بعيدًا عن الوحي تنتهي برجوع البصر بل كل الحواس والأفهام: ﴿خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤] هكذا يكون مآل الأمر من آخره، لا فرق بين من أمضى عمره مستميتًا بكشف هذا السر، أو من فكر فيه دقيقة واحدة، وكثير ممن صالوا وجالوا في علم الكلام والفلسفة عبر مئات السنين في نهاية المطاف تقلبوا في دهاليز فكرهم ليختموا حياتهم إما بتيه محير، أو بإلحاد متصنع، وربما انتهى بانتحار، أو بتمنيهم إيمانًا كإيمان العجائز، إنهم هم بأنفسهم من يعلنون فشلهم الذريع في الطريق التي سلكوها

للوصول إلى تفسير علم الوجود وكشف أسرار الغيب، بعيدًا عن نور الوحي، تخيل فيلسوفًا ومفكرًا يمضي عمره ملتهمًا كل مصدر معرفي متاح من تأليف البشر محاولًا هضمه، ثم يجد نفسه في حاجه إلى استفراغ كل ما أشبع به فكره ليرجع إلى نقطة الصفر ليتمنى إيمان العجائز!

من المكابرة المقيتة إنكار ذلك الشعور الذاتي بالقلق الذي يغشى جميع (الملحدين) قديمًا وحديثًا نتيجة توجههم المتهور نحو (الإلحاد)، لا تستمع إلى مكابرتهم الصاخبة، بل راقب سلوكهم العفوي في أثناء الأزمات والكوارث! سيتضح جليًّا كم من الملحدين قد قفز لنتيجة (الإنكار) دون أن يعلم أن براهين (الإقرار) أكثر من أن تحصى، بينما براهين النفي معدومة ومع ذلك يكابرون، ماذا لو وجهنا سؤالًا بسيطًا لكل ملحد، وقلنا له: لقد قررت أن تلحد، ومن ثم ألحدت! أليس كذلك؟ ثم ماذا؟ هل عالجت المعضلة النفسية لديك بالإلحاد هذا؟ وهل سكنت روحك الشاردة؟ لماذا هذه الاستماتة في نفي وجود الخالق؟ ألا يكفيك مثلًا أن تقسم نسبة الاحتمال إلى نصفين ـ تنزلًا – فتتوقع هذا وذاك بدل أن تجزم بالنفي المطلق لما هو مخالف للعقول والأفهام؟ ألست تغامر في شأنك وحدك دون إضرار بغيرك؟ وعندما ألحدت، وأنكرت هل حركت ساكنًا في كون لا تشكل فيه شيئًا؟ أو سكنت متحركًا بإلحادك هذا؟ هل سيؤثر قرارك هذا في غير نفسك التي أمرتك بهذا السوء؟ وهل سيتحمل تبعاته غيرك؟ أليس هذا هو الجنون بعينه، ألا تدرك أنه لا ضير منك ولا من إلحادك إلا على نفسك أنت، ولئن اخترت هذا الطريق معاندًا ومكابرًا، فلتذهب أنت وحدك بعده وبسببه إلى الجحيم غير مأسوف عليك من باقي الخلق الذين هم أكبر وأبقى وأعدل وأهدى منك في الوجود، لا يحملون ما قد تحمله من كبر وصدود على بصيرة من الأمر، تلمسوا طريق النجاة ففرحوا به، وفوق ذلك يسبحون بحمد خالقهم وخالقك حتى لو أعرضت عن ذلك، وأكثر من ذلك أيضًا هم مع ربهم الذي يحبهم ويحبونه، ووعدهم بكل أمان وسعادة وكل ذلك بيده، وكما تولى شأنهم قبل وجودهم، فقد تكفل برعايتهم بعد موتهم بوعد كله البشرى لهم ولذرياتهم من بعدهم، ولن يضارهم أو يعذبهم، وهو يحبهم.

*****

الفطرة أقوى وأبقى من المنطق

شأن الإيمان بالله أمر كوني أعظم من كل مخلوق فضلًا على عقول البشر القاصرة، إنه لا مقام لآراء البشر المتناثرة ممن حاولوا المستحيل دون جدوى، يخطئ من يتصور أنه لا بد أن يلمّ بجميع كتب الفلسفة والمنطق حتى يصبح قادرًا على تجاوز معوقات الإيمان، ويدحض عن نفسه وساوس الشيطان، والحقيقة أنك -أخي المؤمن- غني بالفطرة والوحي، ولست مضطرًا إلى تفاصيل سجالات المتخصصين بعلم الكلام ولا بمنطق الفلاسفة الممل، الذي لم يوصلهم إلى كلمة سواء في أي قضية جدلية تناولوها، فلا تكترث عندما يتفيهق المتفيهقون، ويتنطع المتنطعون بمصطلحاتهم، فتظن أن عدم فهمك لها إنما هو قصور منك بعلم ضروري أو أنك حرمت علمًا نافعًا في حياتك، تذكر نعمة الفطرة التي فطرك الله عليها، وانطلق منها لكي تكون مؤمنًا سعيدًا، لست في حاجة إلى تفاصيل ما ذكره الفلاسفة، حتى وإن كانوا من القريبين من محيطك الإيماني، مثل أبي حامد الغزالي الذي قال عندما أراد وصف الموجودات مثلًا: إنها تقوم على أربع علل: علة المادة التي يتكون منها الموجود، وعلة الشكل الظاهري وصفات الموجود، والعلة الموجدة والصانعة للموجود، وأخيرًا علة الغائية، أي الهدف من وجود الموجود.

لقد ذكر الغزالي هذا التصنيف للعلل كي يبرهن على استحالة معرفة (العلة الغائية) إلا من خلال خبر يصلنا من (العلة الفاعلة)، وهذا تفسير يصلح للجدل أكثر منه لتجلية الغبش وترسيخ الإيمان الفطري، فمن يقارع المنكرين بالمنطق يحتاج إلى هذا الإغراق التفصيلي ليبرهن على أن المكابرين يستميتون بإسقاط (العلة الغائية) حتى لا يقعوا في حرج إثبات العلة الفاعلة، وهكذا فعل (فرانسيس بيكون)[1] عندما كرر تقسيم الغزالي للعلل، وتهرب من ذكر العلة الغائية؛ لأنه يراها «تفسد العلوم بدلًا من

(١) فرانسيس بيكون Francis Bacon (١٥٦١م- ١٦٢٦م) الموافق (٩٦٨- ١٠٣٥هـ) فيلسوف وسياسي بريطاني يدعو إلى تقدم العلم وتصنيف العلوم يرى أن العلم الصحيح هو القائم على التجربة وأن غ العلم تمكين الإنسان للسيطرة على الطبيعة، ويوصف بأنه فيلسوف التقليد الموضوعي والواقعي: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الأول، ص٣٩٢).

تقدمها»[1] بحسب زعمه، فهم يقولون: إن الكون بلا هدف ولا غاية ولا قيامة ولا حساب؛ لأنهم لو آمنوا بذلك، فهذا يعني أنهم آمنوا تلقائيًّا بالخالق الذي دون خبره عن الغائية ليس بمقدور أحد آخر كائنًا من كان أن يعرف ذلك على الإطلاق، وصدق الله العظيم، حين قال لنبيه ﷺ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

هذا الناموس الفطري موجود كوجود السماوات والأرض، ويستعصي على كل مكابر تجاوزه، وهو راسخ لا مهرب ولا انفكاك عنه، وهذا الذي دفع عالمًا عالميًّا مشهورًا مثل (أينشتاين) ليقول: «إن جوهر الشعور الديني في صميمه هو أن تعلم أن ذلك الذي لا سبيل إلى معرفة كنه ذاته موجود حقًّا، ويتجلى بأسمى آيات الحكمة وأبهى أنوار الجمال التي لا تستطيع ملكاتنا العقلية المسكينة أن تدرك منها إلا صورها الجبلية من السطح دون الدقائق في الأعماق»[2]، وله نظرة ثاقبة ترده إلى اليقين من حيث يصدر الشك عنده أحيانًا، فيقول: «إن أكثر الأمور استعصاء على الفهم في الكون أنه مفهوم!»[3].

لا يحتاج الناس إلى الغوص في أعماق المنطق كي يصلوا إلى الحقيقة، وما الحاجة إلى تعقيدات المنطق ومتاهات الفلسفة وبين يدينا سبل أيسر منه وأفضل؟ لنرجع إلى الفطرة متأملين أنفسنا، سيتضح لنا أن الإقرار بوجود الشيء ليس مستعصيًا على المقدمات المنطقية البسيطة، ولنبدأ بذواتنا نحن، ماذا سيكون جوابي أو جوابك لو وجه إلينا أحد هذا السؤال: هل أنت موجود وجودًا مطلقًا في الوجود هذه اللحظة؟ فلو قلت: (لا) فسينتهي النقاش منطقيًّا، إذ لا حاجة للتفاهم معك وأنت عدم لا وجود لك، إذًا فالجواب الحتمي هو (نعم) قولًا واحدًا؛ لأنك موجود، ها أنت ماثل أمامي أو أمام غيري من بني جنسك الآدمي تعرفهم، ويعرفونك، وتشغل حيزًا مكانيًّا ولحظة

(١) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص٧٢.
(٢) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٣٦١.
(٣) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص٤٧.

زمانية وقيمة وجدانية وروحية تسمع وترى، وأنا مثلك أيضًا ماثل أمامك أو أمام أحد من بني جنسك بنفس الاعتبارات، لا أعتقد أن هناك أي إشكالية في إقرار هذه النتيجة وتصديقها تمامًا، ولو انتقل بعدها إلى السؤال الآتي: متى بدأ وجودك في الوجود، وأين كنت قبل هذا الوجود، وماذا كانت حقيقتك الوجودية قبل خلقك في بطن أمك؟ أي إجابة عن هذه التساؤلات تُوجب عليك الرجوع بأفكارك عبر سلسلة معرفية عقلية بأثر رجعي دون أن تصحبك أعضاؤك الحسية لترسم صورة خيالية عنك اعتبرتها أنت من جهتك نهائية وحقيقة لا مراء فيها، فصدقتها بلا تردد علمًا أن مصدرها العقل وحده!

لقد فكرت في عالم ما قبل ولادتك، وقدرت، وأيقنت يقينًا مطلقًا، وصدّقت فورًا ما توصل إليه عقلك بأنك موجود، وأخذت هذا الأمر مأخذ الحقيقة المطلقة، وكأنك حي تراقب التاريخ المتقلب منذ القدم إلى لحظتك هذه، بل وتصورت وجودك في ظهر أبيك وفي رحم أمك في مراحل قطعًا لم تكن قادرًا على فهمها والإحساس بها في حينها، لكنك الآن تتصور بأثر رجعي أنك كنت بعقل وأنت منطوٍ في الرحم، هذا إن لم تتصور أنك نطفة تعقل حينها! علمًا أنك لم تشهد من عالمك ذلك شيئًا فيما قبل الخلق، ولكنك – وللعجب – مؤمن به حق الإيمان! يحدث كل هذا والعالم كله لا يمكن له معرفة حال الجنين القادم ولا حياته ولا موته، ولم يأتِ أحد من أهل العلم والمعرفة ليحدثنا عنك وعن شخصيتك وذاتك قبل خلقك وقبل وجودك وكيف وجدت لأول مرة؟ وأنت الآن لست على علم يقيني عن حالك قبل هذا الوجود كيف كنت ومن أين أتيت وما القوى التي ستتدخل في تلك اللحظة حتى أنتجتك بشرًا سويًّا كما أنت الآن، قطعًا لا تملك إجابة؛ لأنك لم تشهد الخلق الأول، ولست معنيًّا بالخلق، ولا يتوقف الخلق والوجود الكوني عليك ولا على خيالك أو تصديقك أو تكذيبك: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧] لقد وجدت نفسك بشرًا سويًّا جاهزًا ماثلًا أمام الواقع مضافًا إلى هذا الوجود دون أي تدخل أو معرفة أو اختيار منك أو شهادة من المخلوقين على الخلق، فيا ترى: أتصدّق مراحل تنقلات شأنك البسيط بكل هذا اليقين دون أن تراه، وتستكثر على نفسك إيمانها بالخالق الذي شأنه أعظم وأكبر وأجل على الرغم من كل ما تراه من آيات بينات؟ فما أجرؤك على قدر من هذا كله قَدَره

وتقديره، وهو الذي خلقك وصورك!: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧].

ولئن كنت موجودًا هذه اللحظة حسيًّا ومعنويًّا زمانًا ومكانًا، وتفكر بكل حرية واختيار، فأنت لا تستطيع أبدًا تتبع هذا الإحساس الحقيقي بأثر رجعي عن وجودك قبل خلقك في بطن أمك، إذ لم يكن بمقدورك تقدير القدر ولا رد عقارب الزمان والمكان للوراء لتسترد علينا صورة الحدث في حينه وأنت عاجز، لقد كنت معدوم الإحساس والإدراك، وأنت تتشكل في عالم الوجود حتى بعد أن أصبحت رضيعًا يدب على صدر أمه متلمسًا فقط ثديها للرضاع، غير قادر على خدمة نفسك في أي شيء على الإطلاق، ولم يكن بمقدور أحد ممن حولك أيضًا أن يفعل ذلك، فكلهم داخلون في هذا التحدي المطلق ليس فقط في الماضي ولا الحاضر، بل حتى في المستقبل، نعم، كل المستقبل مهما طال الزمن، كلهم يفترضون، ويرجحون، ويستميتون في سياق البراهين والحجج، وأنت لا تملك أي جواب شافٍ كافٍ عن حالك قبل وجودك، وكيف وجدت، سوى هذه التخيلات والتصور العقلي المجرد الذي لا تتردد لحظة بتصديقه والإيمان به إيمانًا مطلقًا لارتباطه بشأنك.

قطعًا لقد كنت يا أيها الإنسان، شيئًا ما قبل ظهورك على ساحة الحياة، لكننا لا نعلمه، قطعًا لقد كان وجودك عبارة عن ملف معلوماتي متكامل لا يقدر الإنسان على رؤيته بالعين لصغره، ولكنه ينتقل بمعلوماته المعقدة سرًّا بين أصلاب أجدادك الأوائل، حتى وصل إلى أبيك، وجزء آخر من ملفات شخصيتك قادم من جداتك حتى وصل إلى أمك، بمعلومات في غاية التعقيد والثراء والانضباط الوراثي العجيب يرعاه من يرعاه لك وأنت غائب حتى استقر الملف المتداول من صلب أبيك في رحم أمك، فتشكلت لنا بشرًا سويًّا بصفاتك وسلوكياتك ونفسيتك ولونك وصحتك ومرضك وعقمك وإنجابك، لم تكن راعيًا لذلك ولا موجدًا له ولا مشرفًا عليه، ولكنه كان يسيرعلى ما يرام، ولولا تشكلك بهيئتك هذه الماثلة أمامنا الآن ما علمنا خبرك أموجود أنت قبل ذلك أم لا، وعلى أي صورة ولون سيكون تركيبك ومظهرك، وعلى هذا قبلنا بما قبلت به عن نفسك بإيمانك أنك كنت موجودًا حتى قبل ظهورك للعيان إيمانًا لا تقبل

أن يخدشه خادش، ولا ينكره منكر، أي إنك بعد أن مثلت أمامنا كشفت لنا شيئًا عنك في الماضي، ونحن معك قد آمنا به كما آمنت به عقلًا وليس حسًّا، كإيماننا بوجودك الآن عقلًا وحسًّا.

أنت موجود! حسنًا، فهل علمت أن وجودك هذا بذاته دليل قطعي من أدلة لا نهائية على وجود الله خالقك وخالق كل شيء، ألا ترى أن جل الغيبيات التي تجد أحيانًا حرجًا في تصديقها، هي إلى حد كبيرمن هذا النوع الطبيعي من حال هيئتك قبل ولادتك إن لم تكن تلك الغيبيات أوضح منه وأوسع وأيسر تصديقًا؟ لقد جعلت من قرائن بسيطة من شأنك الخاص براهين قطعية على صحة وجود الشيء الذي يعنيك وهو وجودك حتى لو لم ترَه، فَلِمَ جعلت شأنك هذا يقينًا، واعتبرت شأن وجود الخالق أمرًا يحتاج إلى مزيد من البراهين والإثبات؟ علمًا أن فيه من البراهين المساندة للإيمان به ما لا تستطيع حصرها ولا استيعابها، ولكنها ليست إلا لمن قال الله عنهم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] أرجو ألا تكون قد قررت مسبقًا أنك لست منهم!

*****

الحاضر بين حسرة الماضي ورهبة المستقبل

يجد الإنسان نفسه غالبًا بين معضلتين كبيرتين: استيعاب أحداث الماضي المنفلتة منه واستشراف المستقبل المخيف له، ويشعر بالعجز عن الإلمام بتفاصيل الماضي الذي يحمل سجلاته فيه، وينتظر كشفها يومًا ما، إننا نعرف عن ماضينا قبل مئة عام ما لا نعرفه عنه قبل آلاف السنين، فكيف بملايين السنين الماضية؟، وهكذا كلما ابتعدنا عن اللحظة الحاضرة رجوعًا إلى الوراء في سلم الزمان، زاد الغموض عن معرفة أصل هذا الوجود، لولا خبر السماء عنه، ومرة أخرى تذكر تلك الطريقة التي نظرت بها إلى وجودك قبل أن تكون قادرًا على تمييزه، ولنستدل بها على المستقبل كاستدلالنا بها عن الوجود، ألا يكون جهلك بعدمك قبل وجودك في الماضي، مع أنه حقيقة أدت إلى وجودك الآن بشرًا

سويًّا، مشابهًا تمامًا لتوجسك مما بعد وجودك في المستقبل وبعد موتك لما سوف تكتشفه في حينه؟ مع أن أحداث المستقبل كلها ستصبح حقيقة، وستجد نفسك أمامها وجهًا لوجه، كما وجدت نفسك وجهًا لوجه مع حقيقة وجودك، ألا يكون هناك استمرار لوجودك في حياة أخرى لا يشترط بقاء الحس والتمييز الدنيوي عبر الطريق إليها في عوالم أخرى لها نواميسها الخاصة (نعيم قبر وعذابه، وبعث ونشور، ومحشر وجنة ونار) مما لا يقاس بمعايير الدنيا، نترك لك الإجابة بينك وبين نفسك، ولكن نذكرك بهذا الفرق الجوهري بين الحالتين: وهو أنك، وإن كنت لا تحاسب على يقينك عن حالك في الماضي قبل وصولك لمرحلة التكليف، فإنك ستحاسب على صحة اعتقادك عن المستقبل؛ لأنك قد ملكت قبله عقلًا ورشدًا جعلك محلًّا للتكليف والمساءلة، وجاءك النذير والبشير والرسل والكتب السماوية.

إن الخطر كل الخطر أن تتردد ولو لحظة في مجاهدة النفس على حسم الأمر بالإيمان المطلق بأن حقيقة مستقبلية كبرى ستواجهها حتمًا كما واجهت وجودك الآن، وآمنت بمادة جسمك قبل وجودك دون أن تملك أدوات حسية أو حتى عقلًا في حينه تشهد خلقك، فكيف والحال أن الذي صنعك، وأوجدك، وأوجد جدك وجد جدك هو الذي أخبرك أصلًا عن أسرار حياتك وما بعدها، ومن أصدق من الله حديثًا؟!، لقد استقبلت خبر السماء وأنت في مرحلة التلقي والاستجابة عن خبر مستقبلك القادم (يوم القيامة) قبل وقوعه، إذًا لا يقبل منك أن تعتقد أن نهاية الأمر ستكون بنهايتك الحسية بالموت والفناء كما يعتقد الدهريون مثلًا، في الوقت الذي تجهل فيه كيف قدمت إلى هذا الوجود أصلًا، لكنك قطعًا تعلم من داخل نفسك حقيقة النشأة الأولى علم اليقين، تعلم على الأقل تسلسل أجدادك من قبلك لعدة قرون، تؤمن أن أصلك شيء ما تجهل حقيقته، وتؤمن بوجوده لأنه هو الذي أدى إلى وجودك اليوم، والإيمان بالله أولى من ذلك كله ولا مقارنة، فلا مناص من إيمان مطلق يخضع معه كل شيء لله وحده، والتوقف فورًا عن اللهث وراء السراب العقيم.

أيها الإنسان: لا مفر لك من الإقرار بالحقيقة، وهي أنك ضعيف أمام مسرح الوجود كله، وستبقى كذلك أمام أسراره وغيبياته، ولن تستطيع أن تجد جوابًا شافيًا

كافيًا عن حقيقة وجودك وتفاصيله في الماضي والحاضر والمستقبل إلا من نور الوحي فقط الذي هو كلام صانع ومدبر هذا الوجود الذي أحاطه بعلمه، وأخضعه له كله، وهو الذي أخبرنا عن هذا مختصرًا في هذه الآية الكريمة التي نقف عندها إجلالًا واستسلامًا وتسليمًا؛ لأنه لم يصمد في الميدان الجدلي بالحق إلا مثلها من الوحي: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠] ورب السماء والأرض إن ذلك على من خلق كل شيء ليسير ويسير، فواخجلاه من العظيم ﷻ أن نجدف في هذه الجدليات التي لم تُغنِ عنا من الحقيقة شيئًا! ألا يقطر دمع العين الباصرة حياء من جدالنا في حق الله الذي أنشأنا أول مرة، وسيُنشِئنا النشأة الآخرة، القائل عن هذا الشأن داعيًا عباده بكل رحمة ولطف إلى الهداية والنجاة ليتذكروا: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢].

*****

من أحق بالربوبية؟

قد يفهم بعض القراء الكرام أن الإجابة عن هذا السؤال مجرد شكل من أشكال الحكم في مسألة نزاع بيننا نحن البشر، كلا، لا بد أن نتذكر أننا لسنا في موقع الحياد ولا المتفرج، نحن جزء من المشهد، بل نحن الجزء الأضعف جدًّا منه، علاوة على حاجتنا وفقرنا إلى الانحياز الكلي للخالق في كل شيء على الإطلاق، وعندما نقول: من أحق بالربوبية فالمقصود هنا سؤال الإقرار والاعتراف بالحق لمن استحق هذا الحق بوجودنا أو بعدمه، وليس سؤال الاستفسار والحكم له به قسمةً! وهو الغني عن خلقه أجمعين، وهو الرب والإله الواحد، ولسنا في مقام من يفعل ذلك في حق من يملك أمرنا كله، ويخلق ما يشاء، ويصطفي من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ومهما بلغ بنا التنزل في الجدل فلا يمكن أن نتجاهل هذا الحياء من الخلاق العظيم ﷻ، كيف لا وهو القائل سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

ما أكثر من سبقونا، وقادتهم فطرتهم السليمة إلى الحق وقالوها صراحة: إنه من الواجب منطقيًّا أن يكون لهذا الكون والوجود خالق وموجد أقوى وأقدر من كل قوة وقدرة يمكن تخيلها في الوجود، وإن له من الصفات الكاملة كمالًا لا يمكن للعقول الإحاطة به، فما أوجد هذا الوجود العظيم إلا من هو أعظم منه وجودًا، وإن وجوده لم يسبقه حدوث، ولا يتبعه فناء، وإلا لكان هناك ضرورة وجود من أوجده، لكنه هو الموجد الأول والآخر، ولهذا استحق الربوبية المطلقة والألوهية الخالصة، ومن خلق هذا الكون كله بكل نعيم وخير وثروة وثمين وعزيز قطعًا سيكون غنيًّا عن كل ما فيه مما خلقه بيده وبالذات عن هذا الإنسان الظلوم الجهول المجادل فيه بغير علم، الله هو الغني لأنه لو أراد شيئًا لخلقه لنفسه دون مِنّة الخلق عليه، ولو شاء لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه، فهو الرب الإله الغني ولا إله سواه، لقد قالها سبحانه في ملكه ومن أعلى مقام وأقوى حكم وأبلغ بيان: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١] وقال لمن وصل بهم الانحراف إلى ترك عبادة المُوجِد القوي إلى عبادة المخلوقات المُوجدَة الضعيفة: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢] وقال متوحدًا بالحكم والأمر والمشيئة والاختيار المطلق في ملكه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨] هذا مقام الرب الخالق والإله الواحد الأحد، مقام عظيم يجثو عنده كل مخلوق على ركبتيه متضرعًا خاشعًا خاضعًا، مقام الموجد الذي يفرض على كل موجود سواه أن يعظمه، ويخر له راكعًا ساجدًا، مرددًا هذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

ربوبية الخالق هي الوصف العادل والنظرة السليمة للعلاقة بين الوجود والخالق؛ لأنها هكذا تكون سواء عليك أيها الإنسان، آمنت بها أم لم تؤمن، فأنت بوجودك وحياتك وموتك وفكرك وجدالك مجرد ذرة هامشية جدًّا في زاوية نائية من زوايا محيط عالم المخلوقات الجبار، وجودًا وزمانًا ومكانًا، والحاجة لك أن تكون مؤمنًا، ولولا أن الذي تجادل فيه قد كرمك على خلقه، وفضّلك عليهم لما كنت مُعتبَرًا وفق كل المقايس

في هذا الوجود، فلست الأكبر حجمًا، ولا الأقوى جسدًا، ولا الأكثر عددًا، ولا الأقدم وجودًا، ولا الأطول عمرًا بين مخلوقات الله، وأي وزن لك في كون رهيب محكم بنجومه وكواكبه وأفلاكه الهائلة، وأن مصيرك كله بين يدي من يملك القدرة، وهو مَنْ بقدرته واختياره أوجدك، وهو وحده من يكتب عليك الفناء، ويقدر لك ما بعد الفناء وأنت راغم لا خيار لك فيما لا طاقة لك به، ولهذا لم يكلفك الله في ذلك أي تكليف تحاسب عليه، وإنما جعل التكليف فيما لك فيه خيار واختيار في المعتقد والعمل وجعل الثواب والعقاب محصورًا فيه.

إن هذا التوضيح المستفيض للحقيقة لا يعني بحال مصادرة حق الإنسان في السؤال الذي سبق الإشارة إلى ضرورة طرحه بكل شفافية مهما كان، ولكن تذكر أنك أيضًا أمام مشهد عظيم يتعاظم أمامك لما فوق إدراكك، وأنه لمن الطبيعي أن تجد الخلق قاطبة لا يعلمون كل جواب تتطلع إليه عن أسئلة الوجود والغيب، فما إن تبدأ من حيث أنت موجود، وتصعد في سلم معرفة الكون حتى يصاب عقلك (بالفالج) لثقل الحمل عليه في أول درجات السلم المعرفي، ثم لا تلبث أن تنقطع، فتتوقف عاجزًا عن المواصلة من مسافة لا تمثل شيئًا في ميزان الوجود المعروف علميًّا، فيكف بما لا يعرفه الإنسان، إنه بحق مشهد رهيب يكشف ضعفًا بشريًّا لا تملك معه سوى السجود خاضعًا بعد الركوع خاشعًا للخالق العليم الذي يحيط علمًا بما تعلم، وما لا تعلم من عالم الوجود.

هذا هو خيار أولي الألباب، تقرير الربوبة والألوهية لله الخالق لكل شيء، والوصول إلى هذا الخيار بحد ذاته نعمة من خالق الوجود سبحانه؛ لأنه وجود من الوجود نفسه، ولا تصل إليه إلا بفضل خالقك الذي من رحمته منحك عقلًا تدرك به هذا المسار الآمن بعلمه لا بعلمك؛ لتحدد مستقبلك بالإيمان به والعمل وأنت قادر، مكّنك من ذلك بفضله قبل حلول موعدك مع التراب واللحد والظلام بعد مماتك، ولا يُوجَد في مواعيدك الدنيوية موعد مؤكد كتأكيد موعدك مع الموت، لقد انتهى الأمر، وتأكد الخبر أنك ستصبح رفاتًا منثورًا لا تحرك ساكنًا، ولا تسكن متحركًا من جسدك بعد انفصال روحك منه عاجلًا أم آجلًا، وقد يكون ذلك في أثناء قراءتك لهذه الكلمات أو بعدها بلحظات أو أيام أو شهور أو سنوات، لا فرق فالموعد متحقق والوعد هناك،

هناك وهناك فقط: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] وهناك يوم المواجهة مع الحقيقة: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

هذا هو مآلك الحتمي يا ابن آدم، سواء أقتنعتَ بذلك أم لم تقتنع، آمنت أم كفرت، أيقنت أم شككت؟ وفي النهاية منطوق (الحكم) الصادر عليك ينتظر مثولك هناك لتسمع حكمًا نهائيًّا لا مستدرك عليه ولا معقب له ولا مهرب من تنفيذه، تتلوه اليوم بنفسك قرآنًا وأنت في فسحة الدنيا: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] فإذا أيقنت أن الأمر كذلك، وهو كذلك بلا شك فبالله عليك أين يصطف أولئك الملحدون والمنكرون والمشككون في حياتهم الدنيا؟ وماذا أعدوا لتلك اللحظات الحاسمة في خط سير وجودهم؟ وكيف ينكرون الله الخالق، وقد أوشكوا أن يوجهوا الحقيقة والحق الذي سيُفاجأ به الكافرون بالربوبية ينتظرهم في ذلك اليوم العصيب: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠].

*****

الصدود طائف من الشيطان

التكليف الشرعي يشمل مجاهدة النفس على الالتزام بالمأمور به شرعًا ضد هواها، والانتهاء عن المحظور؛ رغبة فيما عند الله، ولا يعني مجرد الانتماء للمعتقد مع حرية اتباع الهوى في كل شيء، وهذا التكليف عبء تتحمله النفس عبادةً لخالقها، ولم تقتصر الرسالات السماوية على أمر الناس بالعبادة والعمل فحسب، بل تجاوزت ذلك إلى الصبر والاصطبار لوجود مشقة طول الأمل وثقل التكليف إلا على من هو أقرب إلى الخالق، فإنه بذلك يأنس به، وينتظر لقاءه على أحسن حال، فيكون من ضمن استعداده استسهال الصعب والمداومة على الطاعة، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢] وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ

﴿وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] ويجب ألا يقلق الإنسان مما قد يجده من فتور بل ونفور أحيانًا تجاه بعض الطاعات، فهو ليس نفورًا حقيقيًّا من وحي ولا كراهية للدين، وليس له تفسير محدد إلا ثبوت حقيقة أخرى، وهي وجود الشيطان الذي أقسم بربه ليغوينّ الناس، وليضلنهم عن الصراط المستقيم، ويصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة، عن طريق التفافات شيطانية قطعها على نفسه أعاذنا الله منه، وأخبرنا عنها القرآن، حيث قال: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

وإذا كان الشيطان يسعى جاهدًا لإغوائنا عن الحق بهذه الوسوسة فلنقلب الموقف على غير مراده، ونجعل من وجوده هذا دافعًا قويًّا نحو الإيمان بتصديقنا لخبر السماء الذي وصف لنا هذه الحالة وصفًا دقيقًا، وأخبرنا عن الشيطان، وحذرنا مما يتطابق تمامًا مع ما يحدث معنا، إننا أمام مصدر غواية وضلال حقيقي يزاحم إيماننا وأعمالنا سلبيًّا بقيادة (مجهولة) لولا أن الوحي أخبرنا عن رأس الضلال، فالإنسان يقع منه ندم قوي بعد المعصية، فيستغرب من سَكْرته عند وقوعها، وفَكْرَته بعدها، وهنا يتضح جليًّا سلوك الشيطان الإغوائي الذي يورط بالمعصية، ثم ينكص على عقبيه بعدها متبرئًا من الضحية، ولو تعمقت أكثر في هذه الجزئية لأدركت بسهولة أن وضعك النفسي مع الذنب سر من أسرار الوجود، بل ودليل قاطع على إيمانك القوي بوجود من تخشاه إذا عصيته، ووجود من يغويك في المعصية نفسها على غير رغبة من نفسك اللوامة، وقد نبأنا عن ذلك وحي السماء مفصلًا، وإلا فلماذا لا تكون المعاصي أمرًا طبيعيًّا في ميزان أي إنسان مهما كان دينه، لا يندم عليها، ولا يستحيي منها أمام الناس؟

لقد سمعتَ وقرأتَ الكثير من نحو ما سبق ذكره عن (الشيطان)، ولكن قليل أن تجد من يحاكي ما يدور في نفسك في هذه اللحظة حوله، كأنك تريد أن تقول: أليس الله هو الذي خلق الشيطان كما خلقني فكيف يحاسبني على إغوائه، وهو أعلم به وبي؟ كم هو جميل أن تفكر بصوت مرتفع، وتطرح مثل هذا التساؤل بكل شفافية؛ لأن بقاءه مع الصمت كارثة بحد ذاته، يوهمك بأن سرًّا ما في هذا الوجود قد تم حجبه عنك لحرمانك الحقيقة، لا حاجة لك بالتفاصيل المملة والتبريرات الاجتهادية، فلن نخوض

مع الخائضين في هذا الأمر دون الذهاب مباشرة إلى كبد الحقيقة التي يكفي معها أن تعلم أن الله قد خلق الشيطان بالدرجة نفسها التي خلق لك فيها حرية الاختيار، بل فضلك عليه، فلم يسلطه عليك بالباطل إلا بقدر أقل مما سلطك عليه في الحق، فأنت تملك الخيار الأقوى بدليل أنك تتوجه لأداء العمرة بقرارك لا بقرار الشيطان، وتقضيها تامّة لله، وتتطهر، وتصلي الوتر، وتمسك القرآن لتتلوه دون أن يكون للشيطان سلطان عليك، إنما تكون ضحيته فقط إذا اشتهيت الغواية، ولم تصبر نفسك على الطاعة طمعًا فيما وعدك الله به، تقع في الغواية إذا اتبعت الشيطان، واستحسنت غوايته، وانظويت تحت لوائه مختارًا وفق هواك، فلا تتذرع بسلطانه المطلق عليك لتبرر ميلك لهوى النفس وشهوتك والحقيقة خلاف ذلك؛ لأنك لو عبدت الله حق العبادة، وامتثلت أمره، وانتهيت عند نهيه وأنت صادق وهذا في مقدورك قطعًا، لما كان للشيطان عليك سبيل، لقد قالها ربنا في كتابه، ولا أحد من خلقه يملك أدنى قدرة تحول بيننا وبين الاحتماء بهذا الوعد الصادق منه ﷻ: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢] إذًا أنت صاحب القرار الأول، والاختيار الحر بين الطاعة والمعصية، ولا شيء على الإطلاق يحول بين العاقل وبين الإيمان المطلق بالغيب كله، لولا هذا العناد والكبرياء والتعالي والصدود الذي لا مبرر له من الإنسان الظلوم الجهول، إنه لا سلطان للشياطين على عباد الله الذين يسمعون للخالق الذي نهاهم أن يتبعوا خطواته، وأخبرهم بأنه يأمر بالفحشاء والمنكر، وأنه يعدهم الفقر، بينما الله يعدهم مغفرة منه وفضلًا، والله واسع عليم.

*****

الإيمان مفتاح أسرار الوجود

ماذا على الإنسان لو آمن بالله، واتقى، وصبر، وصابر: ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٣٩] تالله لو لم يكن من الإيمان بالله واليوم الآخر إلا هذا النور والارتياح الذي يحقق سعادة الدنيا ووضوح الرؤية الفكرية فيها، وفهم الوجود فهمًا منسجمًا مع النفس والروح والفطرة،

وملء فراغ حسي ومعنوي والاستنارة به لمستقبل لا نعلمه إلا من الوحي، لكان ذلك كافيًا للدعوة إلى الإيمان لذات الإيمان في الدنيا قبل ثواب الآخرة، فكيف وبالإيمان أيضًا يتحقق الأهم، ويندفع الأخطر، ألا وهو نجاة المرء في الآخرة من العذاب وفوزه بالجنان، إنها نعمة الإيمان التي لا يدركها إلا من انغمس في نعيمها بفضل الله الذي هداه لذلك، فبالإيمان بالله فقط تتلاشى العقبات النفسية، وتتفتّق المسالك في الفكر والكون قاطبة، بحيث لا يستعصي على الإنسان فهم شيء من أخبار الغيب الكبرى مثل (الوحي)، و(الرسالات)، و(العبادات)، و(الإسراء والمعراج)، و(الأنبياء)، و(الملائكة)، و(الشياطين)، و(الموت والحياة)، و(حياة البرزخ)، و(البعث)، و(الجنة)، و(النار) و(الخلود) وكل ما لا نعلمه بلا حدود ولا قيود! لأنه آمن بمن هو أعلى من ذلك كله، فيكون الإيمان بها متفرعًا من الإيمان بالله العظيم، وهذا الإيمان يقتضي التسليم المطلق لله دون أن يخضع الوجود كله أو بعضه للتصورات والقوانين البشرية التي هي جزء من كلٍّ لا نعلمه أيضًا.

ومن هذا المنطلق تحديدًا نذكرك بإيمانك بالله، وندعوك يا أخيّ، إلى أن تنعم، وتعلم أنك بخير ما دمت قريبًا من الرحمن الرحيم، فعشْ حياة السعداء، واستعذ بالله من شر نفسك ومن الشيطان ووساوسه، وافتح آفاق ذهنك كي تفكر في كل اتجاه، واعلم أنك لم تحط علمًا بكل احتمال وارد وجودًا بقدرة الله تعالى، لا أقول: إن كل ما يمكن أن يخطر ببالك ممكن أن يكون، بل سأذهب إلى أبعد من ذلك لأقول لك: إن كل ما لا يخطر على بالك أيضًا ممكن أن يكون دون حصر بقوانين الطبيعة المألوفة، فالذي قدر على أن يجعل الماء يطفئ النار في دنيانا، قادر على أن يجعل الماء يشتعل في أخرى! ألم يخبرنا عن جانب من ذلك المشهد المناقض للقوانين المألوفة في الدنيا، عندما أخبر بأن البحار سوف تُسجّر نارًا: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] يا لها من سطحية يقع فيها بعض من يتكلفون بوضع صور البراكين المتفجرة من داخل البحار، ثم يستشهدون بهذه الآية! ليوهموا الناس بإعجاز أو إنجاز ليس هو المقصود بالآية الكريمة، بينما الأمر أكبر وأجلّ من ذلك ولا مقارنة ولا مقاربة، الأمر قوانين جديدة تظهر للوجود أو أخرى موجودة، فتتبدل بالكلية بقدر وقدرة من أوجدها من عدم، لا بد أن تتصور

حقيقة هذا التبدل، فهو ليس امتدادًا متدرجًا بل انقلاب رأس على عقب، فالقادر الذي خلق الجاذبية لشد الكتل في اتجاه الأجرام التي تكبرها، قادر أيضًا على أن يجعل تلك الكتل الصغيرة تنطلق من الأجرام الكبيرة نحو الخارج، أو بكل اتجاه، عموديًّا أو أفقيًّا أو دائريًّا أو لولبيًّا أوغير ذلك؛ لأن من خلق كل شيء فهو حتمًا قادر على كل شيء، إن كل أمر مستعصٍ في هذا الوجود يصبح بالإيمان وكأنه معلوم بمجرد الإحالة إلى الله القادر على كل شيء، وما أجملها من عبارة مليئة بالعبودية والاستسلام لله أن نقول عند كل غموض: (الله أعلم).

نحن لا نملك أدوات جبارة نتحسس بها أسرار الغيب سوى تصديق خبر الوحي، وإقحام الحواس البشرية في محاولات اختراق حاجز الغيب كمن يقيس درجة الحرارة بالمتر أو الباردة، ويستحيل الاستدلال البشري على الحقيقة والمعرفة الوجودية المجردة حتى بتلك البدهيّات الدنيوية والمسلمات المنطقية الدارجة على إثبات الغيبيات دون التسليم المطلق لله الواحد القهار، وكيف تكون تلك البدهيّات حاكمة على المنطق الغيبي، وجميع قوانين الحياة الدنيا ستختلف تمامًا عن تلك التي ستكون في الحياة الأخرى بعدها؟ وهو ما أشار إليه القرآن بعبارة صريحة عن أول خطوة في عالم الآخرة: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وقد تجد من يقول في نفسه: وكيف لي أن أصدق ذلك؟! وهذا النوع من البشر لا ينفع معه أي جدال منطقي، ويكفي أن نسأله عمّن أوجد القوانين التي نعايشها والظواهر التي أصبحت طبيعية ومعيارية في أعرافنا مع التعايش، أيعجزه أن يوجد أمثالها أضعافها هنا أو هناك في كل احتمال نعرفه أو لا نعرفه؟ ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

إن هذا الصدود النكد من قبل بعض النفوس المكابرة هو سر فشلها عبر التاريخ في الوصول إلى الحقيقة الوجودية، عندما يصاحب ذلك نفور مباشر عن الوحي، وتشبث بالجهد البشري القاصر طمعًا في الوصول إلى نتائج منطقية مقبولة عقلًا في كل محاولات الإنسان البائسة لفك شفرة الوجود، فتراه ينصرف عن الوحي إلى ما قد يكون تعلمه من علم بشري محدود في حيز حياته الضيقة في الأرض من قوانين وقواعد هي أصلًا ليست محل إجماع عنده، وأغلب تلك المحاولات كانت كمن يريد أن يمرر القطار من ثقب

إبرة الخياطة، وكان الأولى من هذا العناد ضد الوحي، أن يسلم المرء الضعيف الفاني أمره تسليمًا مطلقًا للقوي الباقي، والبدء بهذه المسلمة المبسطة، وهي أنه لا يختلف أحد ممن لديهم ذرة من عقل على أن من يقف وراء هذا الوجود خلقًا ورعاية وتحكمًا وإرادة ومشيئة وابتداءً وانتهاءً إنما هو الرب العظيم الحي القيوم، القادر الجبار، والرب هذا وحده هو المستحق لكل أنواع التعظيم والطاعة والولاء والاستسلام، وأنه بحق هو الإله الأوحد لقدرته التي أوجدت هذه الأجرام الكونية وملحقاتها بهذا النظام الباهر لكل عقل، وهو المستحق للعبادة وحده دون سواه، وهو الذي يُخشى ويُرجى ويُتضرع إليه، ويُطلب الخير منه والاعتصام به من الشر، إنه الإله الحق الأحق بالربوبية وحده لا شريك له، ولكن الاختلاف يقع بين الناس عند محاولة تحديد أسماء هذا الخالق العظيم وصفاته، فيطفو على السطح هذا السؤال: ولكن من يقف وراء هذا الخلق تحديدًا؟

*****

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر: ٦٢]

النفوس المكابرة لا تريد الاعتراف العلني بالحقيقة، وتشعر بغصّة شيطانية قبل أن تقر لله بأنه هو الخالق البارئ لكل شيء، يمنيهم شياطين الإنس والجن في أوهام لا حقيقة لها، فيشغلونهم ويشغلون بهم، تجدهم يُقرّون معك بهذه المسلمة الضرورية عقلًا ومنطقًا، وهي (أن من أوجد هذا الكون هو وحده الذي يستحق أن يوصف بالرب والخالق، وأنه هو من يستحق العبودية والتعظيم والإجلال)، ثم يتوقفون إذا قيل لهم: إنه الله تعالى، وتنزلًا عند حجج الخصوم سنبحث عن جواب لسؤالهم الطبيعي: من ذا الذي يقف وراء الخلق؟ لقد قالوا: إن الطبيعة خلقت الوجود دون تحديد لماهيتها! ولم ينجحوا في البرهنة المنطقية على ذلك بعدما اصطدموا بأن من سلم بفرضيتهم هذه سيسأل: ومن خلق الطبيعة أيضًا؟ وإذا كانت (الطبيعة) بهذه القدرة والصفات والاستقلال فهذه إشارة إلى الله بطريقة غير مباشرة، وإن استخدمت الطبيعة لفظًا غامضًا، وقال آخرون: بل هي المصادفة! فانهارت هذه الفرضية لما وجدوا انتظامًا غريبًا

عجيبًا في الموجودات استحال معه أن تكون المصادفة وراء ذلك، حتى وصل الأمر أن أطلق أبرز علماء العصر (أينشتاين) عبارته المشهورة برفض هذه الفرضية بقوة، فقال: «إن الله لا يلعب بالنرد»[1]، مشيرًا إلى أن اللعب بالنرد يعتمد على المصادفة، ثم لما احتدم الجدل قالوا: إن الوجود قد أوجد نفسه بنفسه! وكيف أوجد الوجود نفسه؟ قالوا: لا ندري! وهكذا فرضيات وتخمينات عشوائية يصدقها قوم، ويكذبها آخرون.

ومن الواضح أن هذه مجرد تجديفات بشرية واهية يلوذ بها كل متهرب تائه، وافتراضات غامضة تعصف بها رياح الخلاف الفكري بين البشر، وعناد قبيح يرفضه العقل الصحيح، والنص الصريح، وأول من تصدى لتلك الفرضيات، وكشف تناقضاتها هم رموزها الذين ابتدعوها، فتبين لهم هشاشتها بعد حين من الدهر، لكن المذهل حقًّا هو أن تجمع الأغلبية الساحقة من الناس من مختلف الأعراق والأديان والأزمان والأعمار والطبقات على أنه (الله) الخالق لكل شيء، وكلٌّ يسميه ويصفه بلغته، إنه إجماع كوني عجيب جدًّا يستحيل أن يحدث دونما ناموس وجودي أكبر مهد لترسيخه في عقول الناس وفطرتهم، أي إن له أساسًا فطريًّا راسخًا لا يتأثر بحركات المد والجزر الفكرية عبر القرون والأزمان، لا بد من وجود سر كبير وراء وجود هذا الإيمان في النفوس وشبه الإجماع الكوني بأن الله هو وحده الخالق، قطعًا لم يكن هذا الإيمان تلقينًا من الأنبياء وحدهم، بدليل أنه لم يبقَ مقصورًا على أتباع الأديان السماوية، بل كل الناس في أي بقعة من الأرض هناك توجّه شعوري ولا شعوري نحو العلو إشارة إلى الله خالقًا وربًّا موجودًا!

هذه الحقيقة الإيمانية الراسخة في القلوب والأفهام، لم يكن الوحي ليوجدها ابتداء من العدم، بل جاء ليرعاها، ويوجهها، وينقيها من الشوائب الشركية، ويحصنها منه، ينزل الوحي متقطعًا على أمم دون أخرى، لكن تبقى الفطرة هي الأصل الذي يتحدى كل فيلسوف ومفكر وكل ملحد ومكابر، وعندما جاء الوحي مطابقًا للفطرة، وبعباراته الصريحة جدًّا: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزمر: ٦٢] يعني أن

(١) فيزياء وفلسفة ثورة في الفيزياء الحديثة، فيرنر هايزنبرغ، ترجمة: الدكتور أدهم السمان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م، ص٢٣.

ذلك كذلك، وهو كذلك أتدري لماذا؟ لأنه – جدلًا – بعد أن أخبر الله الخلق بذلك لم يدّعِ أحد بعده لنفسه هذه الأحقية لا الطبيعة المزعومة ربًّا، ولا المصادفة المفترضة، ولا الوجود نفسه، وذلك إما لعدم وجودها فاعلة في هذا المجال أصلًا، أو لعدم وجود أثر لها في ذلك، أو لضعفها أمام خالقها ومن ثم فهي من خلقه وخاضعة تحت حكمه، وكل ذلك لا يؤهلها للربوبية ولا للألوهية، ومن ثم انتهى الأمر منطقًا وعقلًا وبرهانًا بأن الله سبحانه هو خالق كل شيء.

كل من أنكر ذلك فهو مضطرب من داخل نفسه، يعلم يقينًا أنه لا يقاوم هذا القدر الوجودي الجارف بأن الله خالق كل شيء، وهو على كل شيء وكيل، وليسأل نفسه سرًّا ثم لينظر في جوابه لها، قضي الأمر، لم يعد خيار أمام العاقل إلا أن يقول: آمنت بالله، وحده لا شريك له، وبكل وحي جاء من عنده، مؤكدًا على كلمة التوحيد الخالدة مع كل نبي ورسول عليهم السلام، الوحي الذي يخاطب العقل من أساسه، والفطرة من أصولها بمنطق يصعب تجاهله أو إنكاره من أصحاب العقول السليمة المخاطبة بهذا الحوار المحكم استمع له، وتأمل جيدًا: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤- ٨٩].

*****